التفاعل الثقافي بين الأنا والآخر في الرواية الجزائرية الجديدة
2084" حكاية العربي الأخير" لواسيني الأعرجأنموذجا

أ/ عمر دالي

جامعة تيزي وزو

تروم هذه القراءة فحص الأبنية العميقة في رواية 2084 حكاية العربي الأخير للروائي واسيني الأعرج ، والبحث عن التعالقات النصية والتفاعل النصي والتلاقح الثقافي بين هذه الرواية، ورواية 1984 لجورج أورويل، فليس من السهل استنباط اشتغال هذه التعالقات دلالتها، فآليات اشتغالها مضمرة لا يدرك كنهها إلا القارئ الذي يبحث في ميكانيزمات إدراجها في بنية النص الكلية، من هنا يعد القارئ همزة وصل بين تفاعل النصوص الأدبية بنية ودلالة.

رأى المختصون في الأدب المقارن أن التفاعل الثقافي بين الشعوب والأمم، كفيل لخلق جوّ للتدبر، للتأمل، ويوجهنا نحو حوار حضاري بنّاء[1]، يغوي الكاتب لتقمص دور العليم بكل شيء، وتؤكد نظرة الاديب الناقد جابر عصفور أن هذه الغواية التي تكمن في معطيات الحداثة الغربية والتي تجذب الحداثيين العرب اليها، يمكن أن تستخدم باعتبارها حافزا لبعث الوعي العربي المعاصر وتنبيهه إلى واقعه المتخلف[2]، ولسنا ندعو في هذا المقام، إلى قطيعة معرفية مع الغرب، ولا إلى الانغلاق التام وتسكير أبصارنا عنهم، وإنما إلى تواصل -غير منقطع الأمد- مع تراثنا العربي، الذي تجاوز أو يكافئ الطروحات والمنجزات الغربية في الكثير من العلوم والمعارف الإنسانية.

---

1 - ينظر، جمال مباركي، المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، بسكرة، ص 09.

[2]- عبد الرحيم الكردي، عندما تتوهج الكلمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015، ص107.

والملاحظ أن الدراسات الأدبية الحداثية ولّت اليوم وجهتها قبل المقاربات الذائعة الصيت، والمظاهر المحيطة بالنص الأدبي بشتى تفرعاتها، فقد اشتغلت اهتماماتهم على الكتابات الملفتة للنظر، ليس على مستوى الإنتاج الكمي للأعمال الأدبية، أو على مستوى شهرتهم في شتى بقاع العالم، وإنما الميزة التي بها تفردت هذه النصوص عن نصوص أخرى، واستقطبت بذلك أكبر قدر من القراء باختلاف شرائحهم، ويرجح الأمر في الغالب لشعرية لغة كتابها، وما تحمله هذه النصوص من شحنات دلالية استصيغت بطريقة فنية جمالية.

عند الشروع في قراءة أي عمل روائي قد يلفت انتباهنا غلافه، عنوانه، أو أي علامة خطابية بإمكانها أن توجه القارئ المتلقي لعقد ميثاق ألا وهو ميثاق القراءة، وفي بادئ الأمر نتحيز دونما شك من المغالطات التي مفادها أن النص الروائي بإمكانه أن ينتج دلالة عن طريق قراءة سطحية بسيطة، فهو لم يعد ذلك النص المنغلق على ذاته وفق حدود ودرجات مضبوطة، وإنما أصبح منفتحا على وجهات عدة ومتنوعة.

وإذا تصفحنا متون الروايات العربية بعامة والجزائرية بخاصة، ألفيناها مؤججة بفكر ونظرة الآخر لهذا العالم، فقد جاءت محمّلة بالعديد من الاقتباسات من نصوص غربية سواء كانت متفقة معها في الجنس أو مخالفة لها، فالنص الروائي الجزائري في صيغته الهيكلية يحاور العديد من البنى النصية الغربية، وقد يكون هذا الحوار محاكاة للبنية الهيكلية، أو في علاقات متشابكة مع نصوص أخرى ، مقتطعا منها شخصياتها أمكنتها وغيرها من العناصر الفنية المكونة للبنية السردية العامة، هذا ما يمكن هوية الأنا بالبروز بشكل أفضل دون التملّص لهوية الآخر الذي تكون الكفة منحازة اليه بفضل ايجابياته المتنوعة، دونما إغفال سلبياته أيضا، والتي تدحض نمو الفكر العربي إبداعا ونقدا.

وقد أكد ميخائيل باختين أن العلاقات الحوارية ممكنة حتى بين الأساليب اللغوية وبين اللهجات الاجتماعية، وذلك بشرط أن يجري استيعابها بوصفها مواقف ما ذات معنى محدّد، بوصفها وجهات نظر لغوية من نوعها[1]، فالمبدع الحق هو الذي بإمكانه أن يبث في نصه حيوية تلهم القارئ للتبع مسار حقيقة النص وملابساته، واكتشاف معناه وتشريحه تشريحا فنيا...

حرص الفكر الغربي أن تظهر ممارسة الخطاب كنوع من التفاعل بين فعل التفكير وفعل الكلام، والفرق بين الفكرتين هو في استعمال المعاني بدلا من الفكر، والألفاظ بدلا من الكلام[2] ، فالدراسات الثقافية الحداثية تسعى جاهدة للكشف عن الأساليب التي بها تتشكل القناعات والخبرات الجماعية، ومتى تصبح خطابا فنياّ قابلا للتداول، وهذا التصور الذي تبدو معه الثقافات وكأنما هي مجرد هبة فنيّة لمبدع فرد نفث فيها من روح فنه وعبقريته[3]، ويظهر واسيني الأعرج من خلال روايته2084 حكاية العربي الأخير حاملا لمشعل تنوير العقل العربي، وقد أكد الروائي نفسه في العديد من الحوارات والمقابلات التلفزيونية أن هذا المؤلف هو عبارة عن رسالة خفية للحكام العرب، وما تعيشه المجتمعات العربية من انقلابات وحروب متعدّدة، مما أدى بها إلى انشقاق داخلي وتدهور على صعيد جل المجلات.....

إنّ المؤلف المضمر هو الثقافة، هو ناتج ثقافي مصبوغ بصبغة الثقافة، ثم إنّ خطابه يقول من داخله أشياء ليست في وعي المؤلف، والقضايا المضمرة تعطي دلالات

---

[1]- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ط1، ص270.

[2]- عبد الله محمد الغذامي، المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية والبحث عن الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ط1، ص24.

[3]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ط3، ص51.

تتناقض مع معطيات الخطاب سواء ما يقصده المؤلف، أو هو متروك لاستنتاجات القارئ[1] ، الذي يؤولها مستهدفا عمقها الخفي، يفكك النسق الثقافي المضمر ويكشف عن دلالته المتنوعة .

تقديم الرواية:

صدرت الطبعة الأولى للرواية عام 2016 عن دار الآداب، موضوعها المجمل يتمثل في قصة العالم الفيزيائي آدم، بدأت رحلته الشقية في حياته الدنيا يوم اختطافه في مطار رواسي بباريس، ووجه بعد ذلك نحو قلعة أميروبا الواقعة بين مضيق هرمز والبحر الأحمر، كان هدف الخاطفين أن يخترع لهم قنبلة نووية في بنسلافيا ، آدم العربي الأخير الذي كان يعيش في دوامة الموت والإختطاف، صارع الموت حتى آخر رمق من آماله المحطمة للعيش، ويعود الفضل في نجاته للذئب رماد، الكائن المتخفي الذي كان يمنحه طاقة خفية للعيش ومجابهة المصاعب.

في الحقيقة بعد تصفحنا لثنايا الرواية ومن خلال عنوانها" **2084 حكاية العربي الأخير**" يتبين للعيان تعالق ضمني نصي بين هذه الرواية ورواية "**1984**" لجورج أوريول والتي ترجمها إلى اللغة العربية أنور الشامي، ومن ثمة انتابتنا العديد من الأسئلة ولعل أهمها: لماذا اختار واسيني الأعرج هذا العنوان بالتحديد؟ كيف تجلت التعالقات النصية والتفاعلات الثقافية بين الروايتين؟.....

قامت رواية **2084 حكاية العربي الأخير** باللعب على الأوتار الفنيّة الممكنة، لتستميل المتلقي بالهوس الدائم للشخصية البطلة **آدم**، لانتمائها العرقي والحضاري، حكاية العربي الأخير الذي أصبحت حياته على المحك ورهينة بتنفيذ أوامر **ليتل بروز**، نفس الشيء بالنسبة **لونستون سميث** بطل رواية **1984** الذي يعيش تجربة باطنية

[1]- عبد الله الغذامي ، المرجع نفسه، ص76.

متشعبة غنية بالمتناقضات يسود في ميدانها العنف والخرق بامتياز، تيهان دائم ولا مكان للاطمئنان إن نفسيا وإن اجتماعيا.

سعى الروائي واسيني الأعرج وصف صورة حية للآخر المتسلط على الأنا، مع بيان الرأي العام على لسان سارديه في شكل انطباعات ذاتية في الكثير من المواضع، كما حاول أن يعطي مفهوم مقارب ضمني للصراع الثقافي الحضاري بين الشرق أنفسهم ونعني صناع القرار، وبين الغرب في الطرف الآخر، إلاّ أن الهوة تتسع والمسافة تكبر ليتحول الصراع النفسي داميا، ويظهر جليا على سمة الشخصية البطلة دائما.

وإذا انتقلنا للمتن النصي من أجل استكناه مواقع التفاعل الثقافي، يلفُت انتباها التصديرات الأربعة التي أدمجها واسيني الأعرج في الصفحتين الخامسة والسابعة من الرواية، ويعرف جيرارد جونيت الاقتباس بقوله: " **تصدير الكتاب اقتباس بجدارة** "[1]

التصدير الأول العربي الجيّد الوحيد هو العربي الميت، وهذا التصريح العدائي هو جزء من رسالة بعث بها الدبلوماسي باتريك سرينغ إلى المعهد العربي الأمريكي، التصدير الثاني هو جزء مقتبس من مقدمة ابن خلدون، والتصدير الثالث مقتبس من رواية 1984 لجورج اورويل، أما التصدير الرابع فمقتبس من قول ارثر كوستلر[2].

تؤكد هذه التصديرات مرجعياتها الغربية لتبدو في علاقة متشابكة عبر هذه النصوص الموازية، كما تسعى التصديرات لخلق نوع من الحراك على مستوى تقديم العمل الروائي وتبعث في روح القارئ وتحرك أفق توقعاته، وبذلك يمكن تحديد العلاقة بين هذه التصديرات ومتن الرواية بصفة عامة، ولا شك أن فحوى التصديرات هو قضية الحكم، والتي جعلت حياة البشر مرهونة برفاهيتهم وجاههم،

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات، من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008، ص 107.

[2]- واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2016، ص 07.

ومما يعمّق مأساوية الرؤيا لدى السارد إبّان هذه القضية ألفيناه يقتبس مقطعا من خطاب ليتل بروز بمناسبة الذكرى المئويّة لميلاد جدّه بيغ بروزر وكان عنوان الرسالة **"إقامة الذئاب الضالة"** وجاء في متنها ما يلي: "هناك أمم لا تصبح مفيدة إلاّ عندما تتحوّل إلى رماد، نحن نمنحها فرصة الخروج من رمادها والدخول في تاريخ ضلّت على حوافّه، لتستمر في الحياة على الأرض، شرطنا الأوحد أن تؤمن بشعارنا: الكل مع الواحد.. والواحد سيد الكل[1]، أما شعار حزب وزارة الحقيقة في رواية جورج أورويل 1984 فهو مؤلف من ثلاث جمل : الحرب هي السلام، الحرية هي العبودية، الجهل هو القوة[2] ، والملاحظ أن هذه الشعارات مبنية على ثنائيات ضدية مثبتة على مستوى النص كالآتي : الحرب الرماد/ السلام، العبودية والجهل/ الحرية والقوة

وننتقل الآن إلى مستوى لا يقل أهمية في معمارية النص الروائي، ونعني التقاطبات الثقافية على مستوى بنية المكان، فالعلاقات المكانية ليست مجرد إحداثيات هندسية مجردة، لا علاقة لها بواقع الإنسان ومحيطه الاجتماعي، بل تمثل مفاهيم تصورية في وصف الواقع الاجتماعي[3] بتفاصيله المملة وحيثياته المتناقضة وتقاطباته المتقاطعة.

يقول السارد في رواية 2084 حكاية العربي الأخير: " **نزل الليل بسرعة على قلعة أميروبا، لا شيء في الطابق السابع إلاّ الصمت وبياض مبهم، يتّسع كلّ يوم قليلا، الغرفة البيضاء التي تحتلّ الطابق السابع والأخير كلّه، هي أهم وأعلى ما في**

---

[1]- المصدر نفسه، ص09

[2]- جورج أورويل، 1984، ترجمة أنور الشامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2013، ص10.

[3]- محمد بوعزة، تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون،الجزائر، ط1، 2010، ص102.

القلعة، تطلّ على الكلّ... يتكوّم ليتل بروز الجنرال مالكوم بلير، بحيث يرى الكلّ ولا أحد يراه "[1].

ويقول السارد في رواية 1984: " **كانت الشقة التي يقصدها ونستون في الطابق السابع، وكان عليه أن يصعد سلما طويلا ، وعند كل منعطف من منعطفات السلم السبعة كانت تنصب صورة الوجه الضخم لتحدّق في كل وجه قادم، وكان يوجد أسفل تلك الصورة عبارة بارزة تقول: الأخ الكبير يراقبك[2].**

والملاحظ أن الرقم سبعة حاضر في كلتا الروايتين، الطابق السابع من القلعة، الذي يقطن فيه العربي الأخير آدم، يقابله الطابق السابع من المبنى الذي يقطن فيه ونستون سميث وهناك تقابل آخر وهو متعلق بالعلائق الدّلالية على مستوى الشخصيات، ليتل بروز الذي يسيّر قلعة أميروبا وهو رمز لسيطرة الأنا الأبدية على الآخر، والعربي بالتحديد ، والأخ الكبير الذي يبحث عن حقيقة وزارة الحقيقة والمنظمات الحكومية الأخرى، في عالم تسود فيه الأكاذيب، واختراقات بالجملة لحقوق الإنسان ومن هنا يمكن طرح السؤال التالي: لماذا اختار واسيني الأعرج قلعة أميروبا وبالضبط الطابق السابع لتكون مسرحا لوقائع أحداث أبطال روايته؟ ومن خلال مسار الحكي يتبين أن ليتل برورز ومن خلال موقعه في القلعة هو رمز للسيطرة المطلقة تتحكم في كل نفس بشرية متواجدة بها وبمحيطها، أما بالنسبة لشخصية آدم الذي يمتلك سلطة القول الداخلي المنولوجي، والذي سعى جاهدا لتعرية الحضارة الغربية التي قهرت الإنسان وجعلته عبدا للآلة ومجرد معادلة ليس لها حل مصنف على أساس هويته أو انتماءه، دون أي شعور أو إحساس بخصوصيته كبشر .

---

[1]- واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، ص10.

[2]-جورج أورويل، 1984، ص08.

إن عدم تلاؤم الشخصيات البطلة مع مصيرها ووضعيتها يدفعها للبحث عن البديل الذي يمكنها من تحقيق نشوة الحياة، فهزيمة الفرد هي الشرط نفسه لقيام الذاتية، كما أن وعي الفرد الإشكالي هو أكثر اتساعا ورحابة من جميع المصائر، التي يمكن أن تقدمها الحياة له، ومن ثمة يمكن للإنسان الحديث أن يستعيد من خلال هذه النماذج كليته وعلاقته العضوية بالثقافة والمجتمع[1]، .....

وينقلنا الروائي عبر دواله اللّغوية لموضوع آخر، وهو الخطاب الأيروسي، هذا الخطاب حتّى وإن كانت القناعة الفردية هي التي دفعت به للحديث عن هذا الخطاب، والذي أصبح ظاهرة متفشية بين الروائيين الجزائريين، كما يعتبرونه أو يُخيّل إليهم وكأنه أسلوب جديد في الكتابة الرّوائية، إلاّ أنّ الواقع يثبت عكس هذه الطرح تماما، وما يعزز هذا القول وجود رابط بين الروايتين، يقول السارد:" **الانسان الذي يضمر رغباته ويخفيها باسم قياسات أخلاقية صنعها الأولون لأنفسهم لتنظيم حياة بدائية، فقيّدت اللاحقين وكأنّها حقائق مطلقة**"[2] يضمر السارد ضمنيا الطابو الجنسي أو ما سماه جورج باطاي بالأيروسي ، ولكن السارد في رواية 1984 كسر هذا الطابو باعتباره جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية للبشر، فقد رسم لمحة لأدب البلوريتاريا الذي يخدم مصلحة الحزب ووزارة الحقيقة، **وهناك تصدر جرائد تافهة لا تحوي شيئا تقريبا ، تنتج الروايات الجنسية ، والأغاني العاطفية ووسائل لهوهم بصورة عامة** [3]

---

[1]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، ص13.

[2]- واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، ص 18.

[3]- جورج أورويل، 1984، ص 51.

وينقلنا واسيني لموقف آخر إذ يقول: **العربي لا يصبح جيدا إلاّ بموته، كائن غريب متعلق في الموت بفضلات التاريخ، ولا أعرف ماذا يجني من وراء ذلك، هو يقتل نفسه بنفسه بحشرها في الموت** [1]، قد تبدو بعض المشاهد- للوهلة الأولى- التي ساقها الرّوائي لا أهمية لها، ومنفعتها لا تتعدى كونها مجرد أحداث بسيطة، إلاّ أن هذه المشاهد هي توضيح لهيمنة الآخر الغربي وتسلطها على الأنا العربية ونعتها بأبشع الطرق وهذا ما أثارته جملة: كائن غريب، ولكن كيف يمكن أن ندحض هذه الغرابة، بالرضوخ لأمة تعيش في متناقضات جمّة، تدعي حبّها وتعاطفها مع الآخر والحقائق تثبت عكس ذلك، وأبرز مثال شخصية العالم الفيزيائي آدم، فلم تكن هناك ولو ذرة محبة ومودّة مع الآخر، ولو خيّل للقارئ عكس ذلك من خلال الكلام والحوار الذي قام بين ليتل بروز وآدم، إلاّ أن ذلك كفيل لخدمة المصلحة الشخصية وفقط، لا رأفة به، فبفضل العربي الأخير يمكنهم التحكم بموازين القوى العالمية، فهم الكل والكل سيد العالم، يتحكم حتى بمصائر البشر.

وفي الختام، يمكن القول إن الخطاب الروائي الواسيني خطاب مركب البنى متسم بالزئبقية، استقرت فيه مجمل الوحدات العضوية، التي تكوّن في تواشجها وتلاحمها وترابطها نصا روائيا تسود في عوالمه ودهاليزه العديد من المتناقضات، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن تدرس هذه الوحدات القرائية وتلك العلامات في فضاء منعزل عن الفكر، والذي يبحث بدوره عن أفق جديد للتعبير عن القضايا الإنسانية والمعرفة اللامتناهية للأنا والآخر، في حدود هذا العالم، ومن خلال هذه النماذج القليلة التي استشهدنا بها في هذا البحث، نقر بأن الموضوع يحتاج لدراسة مستفيضة، تخدم الرواية العربية بعامة والقارئ العربي بخاصة.

[1]- واسيني الأعرج، المصدر السابق، ص 19.